السنة 2 ماستر عقيدة. مقياس مقاصد العقيدة. المحاضرة 9: كلية المعاد (المقاصد العقدية لليوم الآخر).....د/دبيحي

أولا: أهمية الإيمان باليوم الآخر:

الإيمان باليوم الآخر ركن من أركان الإيمان، وعقيدة من عقائد الإسلام الأساسية؛ فإن قضية البعث في الدار الآخرة هي التي يقوم عليها بناء العقيدة بعد قضية وحدانية الله تعالى. **{وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ}** (الأنعام: 29).

والإيمان بما في اليوم الآخر وعلاماته من الإيمان بالغيب الذي لا يدركه العقل، ولا سبيل لمعرفته؛ إلا بالنص عن طريق الوحي، ولأهميَّة هذا اليوم العظيم؛ نجد أن الله تعالى كثيرًا ما يربط الإيمان به بالإيمان باليوم الآخر كما قال تعالى:**{ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}**(البقرة:177)، وكقوله تعالى: **{ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}** (الطلاق:2)، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة؛ إذ قلَّ أن تمرَّ على صفحة من القرآن؛ إلا وتجد فيها حديثًا عن اليوم الآخر، وما فيه من ثواب وعقاب.

ثانيا: الحياة في التصور الإسلامي:

والحياة في التصور الإسلامي ليست هي الحياة الدُّنيا القصيرة المحدودة، وليست هي عمر الإنسان القصير المحدود، إن الحياة في التصوُّر الإسلامي تمتدُّ طولًا في الزمان إلى أبد الآباد، وتمتدُّ في المكان إلى دار أخرى في جنة عرضها السماوات والأرض، أو نار تتَّسع لكثير من الأجيال التي عمَّرت وجه الأرض أحقابًا من السنين[1]، قال تعالى: **{سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ}**، (الحديد:21)، وقال تعالى: **{يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ}** (ق 30).

إن الإيمان بالله واليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب هو الموجه الحقيقي لسلوكِ الإنسانِ سبيلَ الخير، وليس هناك أي قانون من قوانين البشر يستطيع أن يجعل سلوك الإنسان سويًا مستقيمًا كما يصنعه الإيمان باليوم الآخر، ولهذا؛ فإن هناك فرقًا كبيرًا وبونًا شاسعًا بين سلوك من يؤمن بالله واليوم الآخر، ويعلم أن الدُّنيا مزرعة الآخرة، وأن الأعمال الصالحة زاد الآخرة؛ كما قال الله تعالى: **{وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى}** (البقرة: 197)؛ هناك فرقٌ بين سلوك من هذا حاله، وبين سلوك آخر لا يؤمن بالله، ولا باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب، "فالمصدق بيوم الدين يعمل وهو ناظر لميزان السماء لا لميزان الأرض، ولحساب الآخرة لا لحساب الدُّنيا"[2] له سلوك فريدٌ في الحياة، نرى فيه الاستقامة، وسعة التصور، وقوة الإيمان، والثبات في الشدائد، والصبر على المصائب؛ ابتغاء للأجر والثواب، فهو يعلم أن ما عند الله خير وأبقى.

والمسلم لا يقتصر نفعه على البشرية، بل يمتدُّ إلى الحيوان؛ كما في القول المشهور عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه: "**لو عثرت بغلةٌ في العراق؛ لظننتُ أن الله سيسألني عنها: لِمَ لَمْ تُسَو لها الطريق يا عمر**"[3]؛ هذا الشعور هو من آثار الإيمان بالله واليوم الآخر، والإحساس بثقل التبعية، وعظم الأمانة، التي تحملها الإنسان وأشفقت منها السماوات والأرض والجبال، إذ يعلم أن كل كبيرة

---

[1]-ينظر: اليوم الآخر في ظلال القرآن

[2]-ينظر: اليوم الآخر في ظلال القرآن

[3]-ينظر: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء

وصغيرة مسؤول عنها، ومحاسب بها، ومجازى عليها، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر: {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا}، (آل عمران: 30)، {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} (الكهف:49)

وأما الذي لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء؛ فهو يحاول جاهدًا أن يحقق مآربه في الحياة الدُّنيا؛ لاهثًا وراء متعها، متكالبًا على جمعها، مناعًا للخير أن يصل الناس عن طريقه، قد جعل الدُّنيا أكبر همه، ومبلغ علمه، فهو يقيس الأمور بمنفعته الخاصة، لا يهمه غيره، ولا يلتفت إلى بني جنسه؛ إلا في حدود ما يحقق النفع له في هذه الحياة القصيرة المحدودة، يتحرك وحدوده هي حدود الأرض وحدود هذا العمر، ومن ثم يتغير حسابه، وتختلف موازينه، وينتهي إلى نتائج خاطئة (انظر: اليوم الآخر في ظلال القرآن) لأنه مستبعد للبعث'' بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ. يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ) ''القيامة: 5،6.)

هذا التصور الجاهلي المحدود الضيق جعل أهل الجاهلية يسفكون الدماء، وينهبون الأموال، ويقطعون الطريق؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث ولا بالجزاء؛ كما صور الله حالهم بقوله تعالى'' :وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنيا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ) ''الأنعام: 29 (وكما قال قائلهم: إنما هي أرحام تدفع، وأرض تبلع.

وتمر القرون، ويأتي العجب، فيحدث من الإنكار أكبر من هذا، فنرى إنكارًا كليًا لما وراء المادة المحسوسة؛ كما في الشيوعية الماركسية الملحدة، التي لا تؤمن بالله تعالى ولا باليوم الآخر، وتصف الحياة بأنها (مادة) فقط! وليس وراء المادة المحسوسة شيء آخر، فإن زعيمهم (ماركس) الملحد يرى أنه لا إله! والحياة مادة؛ لا يدركون معنى الحياة وما خلقوا له، بل هم ضائعون تائهون، إن تحقق لهم اجتماع؛ ففي ظل الخوف من سطوة القانون.

وتجد هذا الصنف من الناس من أشد الناس حرصًا على الحياة؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث بعد الموت؛ كما قال تعالى في وصف المشركين من اليهود وغيرهم'' :وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ) ''البقرة: 96.)

فغير المؤمنين لا يرجون بعثًا بعد الموت، فتجده ينتشر بينهم: الجشع، والطمع، وقهر الشعوب، واستعبادهم، وسلب ثرواتهم؛ حرصًا منهم على التمتع بلذات الحياة الدُّنيا، ولهذا يظهر بينهم الانحلال الخلقي، والسلوك البهيمي.

وهم إذا رأوا الحياة الدُّنيا تربو متاعبها وآلامها على ما يأملون من لذات عاجلة؛ لم يكن لديهم أي مانع من الإقدام على الموت، فهم لا يقدرون مسؤولية في حياة أخرى، فليس لديهم ما يمنع من إقدامهم على التخلص من هذه الحياة.

من أجل هذا اهتم الإسلام وجاء التأكيد في القرآن على قضية الإيمان باليوم الآخر ، وإثبات البعث والحساب والجزاء، فأنكر على الجاهلين استبعادهم له، وأمر نبيه أن يقسم على أنه حق'' :قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ '')التغابن(7:، وذكر من أحوال يوم القيامة، وما أعده لعباده المتقين من ثواب، وما أعده للعاصين من عقاب، ولفت نظر الجاحدين له إلى دلائل حقيقته؛ استئصالًا للشك من النفوس، وحتى يضع الناس نصب أعينهم هذا اليوم وما فيه من أهوال تقشعر لها الأبدان؛ ليستقيم سلوكهم في هذه الحياة؛ باتباع الدين الحق الذي جاءهم به رسولهم صلى الله عليه وسلم.

ثالثا: أدلة حدوث اليوم الآخر:

أ- النشأة الأولى:

قال تعالى" :يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنْ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ) " ...الحج: 5- 7.(

فمن قدر على خلق الإنسان في أطوار متعددة لا يعجز عن إعادته مرة أخرى، بل إن الإعادة أهون من البدء في حكم العقل؛ كما قال تعالى" :وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ "]يس: 78- 79.[

ب- المشاهد الكونية المحسوسة الدالَّة على إمكان البعث:

قال تعالى" :وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ. ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. وَأَنَّ السَّاعة آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ] "الحج: 5- 7. [

فإحياء الأرض الميتة بالمطر وظهور النبات فيها دليل على قدرة الخالق جل وعلا على إحياء الموتى وقيام السَّاعة.

ج- قدرة الله الباهرة المتجلية في خلق الأعظم:

قال تعالى" :أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ. نَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) "يس: 81- 82.(

فخالق السماوات والأرض على عظمها قادر على إعادة خلق الإنسان الصغير؛ كما في قوله تعالى" :لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) "غافر: 57.(

د- حكمته تعالى الظاهرة للعيان والتجلية في هذه الكائنات لكل من أنعم النظر وجرد الفكر من التعصب والهوى:

والحكيم لا يترك الناس سدى، ولا يخلقهم عبثًا؛ لا يُؤمرون، ولا يُنهون، ولا يُجزون على أعمالهم: قال تعالى" :أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ. فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ) "المؤمنون: 115- 116.(

وقال تعالى" :وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ. مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ) "الدُّخان: 38- 39.(

فمن البين أن من أدار نظره في عجائب هذه المخلوقات، وتدبر ما فيها من نظام وإحكام، فكل شيء خلق بمقدار، وكل شيء خلق لغاية وأمد في تحقيق هذه الغاية بما يكفل وجودها وقيامها إن هو سار على النهج الذي أراده الله له.

إن النظر في هذا الكون الرحب ليرينا – إلى جانب شمول علمه تعالى وعظم قدرته – بالغ حكمته، فلا يترك الناس يعتدي قويهم على ضعيفهم دون أن يكون له رادع، ولا يترك هؤلاء الذين ينحرفون عن الجادة دون أن يكون لهم من العقاب فيما وراء هذه الحياة ما هم جديرون به، ولا يترك هؤلاء الذي كرسوا جهدهم ولم يدخروا وسعًا في العمل على مرضاة ربهم دون أن يجدوا من فضل الله وإنعامه عليهم في اليوم الآخر ما يعلمون معه أن ما ضحوا به من متاع، وما تحملوا من مشاق في حياتهم الدُّنيا، إن هو إلا نزر يسير بجانب ما يجدون من ثواب ونعيم في جنة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

إن الناس لو تأملوا سنن الله الكونية وجليل حكمته تعالى، وعظيم عنايته بالإنسان وتكريمه له؛ لدفعهم ذلك إلى الإيمان باليوم الآخر، فحينئذ لا تطل الأنانية بوجهها البغيض، ولا يكون تكالب على الحياة الدُّنيا، بل التعاون على البر والتقوى.

رابعا: المقاصد العقدية للإيمان باليوم الآخر: يمكن استنباط مجموعة من المقاصد العقدية للإيمان باليوم الآخر، أهمها: تحقيق الشعور بالمسؤولية، وتحقيق التكافل الاجتماعي، وتحقيق الأمن النفسي، وفيما يأتي تفصيلها:

1–تأكيد مسؤولية الإنسان عن أعماله في الحياة الدنيا: تحدث القرآن الكريم كثيرا عن حياة آخرة بعد هذه الحياة سماها تارة الدار الآخرة، وأحيانا اليوم الآخر بطرق مختلفة ومتنوعة، ومن أهم الحقائق التي تتكرر في كل موضع يذكر فيها القرآن الحياة الآخرة إلحاحه على مسؤولية الإنسان عن أعماله في الحياة الأولى، حتى إنه ليبدو إنها هي المقصود الأساس من ذكر الآخرة وما فيها، ومن ذكر مقدماتها السابقة لها ونتائجها، من ذلك قوله تعالى: **{يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا، وما عملت من سوء تود لو أنّ بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد.}** (آل عمران).

2–تأكيد حقيقة تكامل الوجود والعدالة الإلهية: إنّ وجود حياة أخرى بعد هذه الحياة ينطوي على مقاصد فيها تحقيق التكامل الوجودي للإنسان "لقد عرفنا أنّ لهذا الكون خالقا مدبرا ولا نزال في كل يوم نكتشف من أسرار خلقه ما يزيدنا إيمانا بحكمته وبكماله المطلق ورحمته فيما يخلق أو ليس من مقتضى حكمته وعدالته أن يكمل هذه الحياة البشرية ويعوض ما فيها من نقص وشر وظلم في حياة كلها خير وكمال وعدل ورحمة، إنّ قليلا من التفكير السليم والفطرة الصادقة يكفي لأن يؤمن الإنسان بهذه الحياة المثالية الكاملة."

3–الاستقامة والانطلاق الحضاري: إنّ التأمل في آيات القرآن يرشدنا أنّ مقصد الإقناع العقلي بوجود حياة آخرة ليس هو غاية القرآن الكريم وحده بل إلى جانب ذلك يتجلى مقصد تحريك العواطف، وحدوث الانفعال النفسي في نفس المتفكر في مصيره وما يحدث ذلك من عواطف الخوف من المصير، والخجل والحياء من الله الخالق المنعم والخشية من لقائه وحسابه، والرغبة في تجنب سخطه وغضبه والوصول إلى مرضاته ومحبته وهذه عواطف سامية ترتقي الإنسان في الدنيا والآخرة.

لقد كانت الخشية من الله تعالى والإيمان بحسابه دافعا قويا للمسلمين الأوائل في الانطلاق الحضاري بكل معانيه ففتحوا الدنيا وأقاموا فيها العدل وثاروا ضد الظلم ونهوا عن المنكر بدافع الإيمان باليوم الآخر: "فلم يكن عدل عمر ولا ير عثمان وتضحيته، ولا زهد أبي بكر، ولا جهاد علي، ولا فتوحات أبي عبيدة وخالد منبعثة عن رقابة الناس، أو طلبا لالتفافهم حولهم، ولا ناشئة عن ضغط المجتمع ولا طلبا لثقة الناس أو طمعا في تكوين مجد، ولكن الدافع أنبل من ذلك كله، وأقوى أثرا أعمق في النفس، إنها خشية الله التي خامرت قلوبهم والرغبة في مرضاته، وإيمانهم بأنّ أعمالهم ستُعرض عليه في يوم تتقلب فيه القلوب والأبصار في يوم تسقط فيه العظمات الدنيوية (...) إنّ العصر الذي كان المسلمون أشد ما يكونوا نشاطا في هذه الدنيا نفسه ذلك العصر الذي كانوا فيه أشد إيمانا بالحياة الآخرة وحسابها."